الفصل الثانى

الفخر الحزبى

نما هذا النوع من الشعر فى العهد الأموى ، وقد اصطبغ بصبغة السياسة ، وذلك أنه لما بويع على بن أبى طالب وقع خلاف سياسى شديد فى شأن الخلافة ، وقد اتهم على بتراخيه فى القبض على قتلة عثمان بن عفان ، وقام فى وجهه ابن الزبير يناصبه العداء ، كما قام فى وجهه معاوية بن أبى سفيان يطالب بدم عثمان ويطمع فى الملك ؛ وقام فى وجه على ومعاوية حزب الخوارج يحارب هذا وذاك . وهكذا انقسم العرب أحزاباً ، فمن شيعة يناصرون بيت على . إلى زبيريين يشايعون آل الزبير . إلى خوارج ينهضون فى وجه الاستبداد . إلى أمويين على عرش الخلافة يذودون عن سلطانهم بشدة ؛ وهكذا كان لكل حزب شعراء يساندونه بأقلامهم ، وكان شعرهم حماسيًّا شديد اللهجة لأنه شعر العواطف المتناحرة فى سبيل الحياة والدين والحرية والسيادة . ومن أولئك الشعراء قطرى ابن الفجاءة ، وعمران بن حطان ، والطرماح بن حكيم ، وعمرو بن الحصين للخوارج ، والكميت الأسدى وكثير عزة للشيعة ، وعبيد الله بن قيس الرقيات للزبيريين ، وأبو العباس الأعمى وأعشى ربيعة والنابغة الشيبانى وعدى بن الرماح وكعب الأشقرى للأمويين .

وإلى جنب هؤلاء جميعاً ثلاثة شعراء هم فى الذروة لذلك العهد ، أعنى بهم الأخطل والفرزدق وجريراً . وإنهم ، وإن لم يكونوا من شعراء السياسة بكل ما فى الكلمة من معنى ، لتغلب العصبية القبلية عليهم ، قد عاشوا فى ظل بنى أمية واتصلوا بالأحزاب السياسية ورأوا فيها وسيلة يتذرعون بها للوصول إلى غايتهم القبلية ،

ثم إنهم فى ملاحياتهم الشهيرة مزجوا الفخر الذاتى بالفخر الحماسى والفخر الحزبى ولذلك لم نر بأساً فى التعرض لهم فى هذا الباب .

وإننا إذا ألقينا نظرة على الفخر الحزبى فى هذا العهد نرجع بما رجع به الدكتور زكى المحاسنى إذ قال : « لا يكاد يأخذ بإعجابى وصف حرب قاله أحد شعراء العصر الأموى ، فأرى خلاله رهط المقاتلين يتلاحمون بين الحياة والموت ، وألمح لمعات الأسنة والسيوف تقع فى اللبات والنحور ، وأسمع زمازم الجيش تمور فى حومة الوغى ، حتى يعكر علىّ صفاء هذه الصورة وبراعة هذا الوصف أبيات فى أواخر القصيدة أو فى أثنائها ، يحاول بها الشاعر أن يعفى على آثار قوم آخرين فى الشجاعة والبأس . وقد لا يتورع عن إيذائهم بالهجاء ، وسلبهم كل خصال المروءة والحمية التى عرفت فيهم . فهو أبداً يسعى إلى إعلاء قومه ، فيخلع عليهم صفات المكارم والفضائل ، وينزعها عن سواهم ، حتى بات كثير من أقوال هذه الطائفة من الشعراء منوطاً علاؤه بخفض غيرهم . وكلما زاد تهجين الشاعر لأعدائه وذمه إياهم ، انطلق جناحاه فى أجواء الثناء على نفسه وعلى قومه . وقد تأثر الشعر العربى من فواتحه إلى خواتيمه فى شعر الفخر ، فوجدته يمضى على هذا الغرار فى عصر بنى أمية . فإذا كان الشعر فى وصف الحرب تناول قائلوه هذه الطريقة ، فذموا شجاعة غيرهم ومدحوا أنفسهم وبطولتهم . وقد لا يظل هذا المدح والهجاء فى قصيدة الشاعر الواحد ، وإنما يتجاوزانه إلى أكثر من شاعر ، فينبرى من يقول قصيدة أو أبياناً فى ذم خصومه فى الحرب ، وحمد قومه ، فيتصدى له شاعر آخر يرد عليه بذمه ومدح نفسه وقومه ، ثم يدخل آخرون فى الحلقة بمثل ديدن السابقين ، فتصبح معالم الوصف الصادق مشوهة على من جاء يتقرى ، فيحار متلمساً أى قوم أشجع وأفتك ، وأشد بأساً فى وقيعة ، وأى معشر فيهم سجايا الفروسية ، ولأى كتب النصر؟ » .

ا — شعر الخوارج :

شعر الحرب عند الخوارج صورة ثورة دينية عنيدة ، وصورة شجاعة جبارة ؛ هو شعر كتب بشفار السيوف ، ورؤوس الرماح ؛ هو شعر الاستماتة فى سبيل الغاية المثلى التى يتاضلون لأجلها ، والتى يجسمونها فى قولهم أبداً : « لا حكم إلا لله ! »

وقطرى بن الفجاءة هو ذلك الشاعر الذى يضطرم شعره حماسة وإقداماً ، وهو الذى خاض المعارك فى بطولة ما بعدها بطولة ، وقد اشترك فى حرب « دولاب » التى جهز إليها ابن الزبير أمير البصرة جيشاً لجباً ، والتى دامت عشرين يوماً . وقد انتصر الخوارج انتصاراً عظيما ، فقال ابن الفجاءة ذاكراً زوجته أم حكيم وواصفاً الحرب :

لعمرُك إنّنى فى الحياةِ لزاهدٌ ... وفى العيشِ مالم أَلقَ أمّ حكيمِ ..
ولو شهدَتْنى يَوْم دولابَ أبصرتْ ... طِعَانَ فتى فى الحرب غير ذميمِ
غداةَ طَغَتْ فِى الماءِ بكرِ بن وَائلٍ ... وعجنا صدورَ الخيلِ نحو تميمِ

هكذا كان قطرى بن الفجاءة : عقيدة ثابتة ، وشجاعة فوارة . فهو رجل تدين ، وهو رجل حرب ، وشعره حافل بالروح « التى تزجر المتخاذلين ، وتنضح بالقتال ، لأن الحياة زائلة ، وشرف الموت على حد السيوف أعز وأبقى ».

أما عمرو بن الحصين فهو من شعراء الخوارج أيضاً وقد شهد يوم قديد — وهو مكان بالقرب من المدينة — ووصف الخوارج فى حربهم تلك .

ب — شعر الشيعة :

كان أهل الشيعة فى شعرهم الحربى أقل فروسية من الخوارج ، وكانوا ذوى ثورة وطمع فى الخلافة ، ولذلك وجه إليهم بنو أمية أشد ضرباتهم . وشعر الشيعة

هو شعر السخط والحزن ، وهو يرمى إلى الجهاد فى سبيل الخلافة ، وذلك فى أسلوب يتقلب بين الهدوء والثورة ، والرقة والحزن ، بحسب ما تقتضيه حال الاحتجاج أو الغضب أو الألم .

وللكميت بن زيد الأسدى الشاعر الشيعى فى هاشمياته قصيدتان رائعتان فى الحرب ، قال فى إحداهما واصفاً أبطال شيعته :

فهُمُ الأُسْدُ فى الوغى لا اللواتى ... بين خيس العرينِ والآجامِ
أُسْدُ حربٍ غُيوثُ جَدْبٍ بَهَالِيـ ... ـلُ مَقَاويلُ غير ما أَفْدَامِ
سادَةٌ ذادَةٌ عن الخُرَّدِ البيـ ... ـضِ إذا اليومُ صارَ كالأَيَّامِ
لا كعبدِ المليكِ أو كوليدٍ ... أو سليمانَ يَعْدُ أو كهشامِ

حـ — شعر الزبيريين :

لقد أنكر الزبيريون على بنى أمية جعلهم الخلافة وراثة فيما بينهم دون سائر قريش . وكانوا من العاملين فى سبيل الأرستقراطية .

وشعر ابن قيس الرقيات حافل بوصف قتال الزبيريين وإقدامهم ، حافل بوصف بطولته ، مملوء بالحماسة والفروسية . قال يمدح ابن الزبير وأخاه مصعباً :

والزُّبَيْر الذى أجابَ رسولَ اللَّـ ... ـهِ فِى الكَرْب والبلاءُ بلاءُ
والذى نغَّص ابن دومة ما تو ... حى الشياطين ، والسيوفُ ظِمَاءُ
فأَباح العِراقَ يضربُ بالمُنْـ ... ـصل صلْتاً ، وفِى الضِّرابِ غلاءُ
إنَّما مُصعَبٌ شهابٌ من اللَّـ ... ـه تجلَّت عن وجههِ الظَّلْماءُ
مُلكُه مُلكُ قوَّةٍ ليسَ فيه ... جَبَروتٌ ولا به كِبْرِياءُ

ولما فر الشاعر من وجه بنى أمية والتحق بفلسطين نازلاً على أهل له من بنى كنانة ، نظم قصيدة استهلها بالغزل ثم فخر بقومه وفروسيته ، قال :

حلَقٌ من بنى كِنانَة حولى بفلسْطِينَ يُسرعونَ الرُّكوبَا
من رجالٍ تُغنِى الرجالَ وخَيْلٍ رجُمٍ بالقنا تسدُّ الغيوبَا
لا يُبالونَ مَنْ أقامَ إذا ما كشفوا بالسُّيوفِ يوماً عصيبا
إنَّ قوم الفتى همُ الكنْزُ فى دُنْ ياه والحالُ يسرعُ التَّقْلِيبا ..

إلى غير ذلك مما حفلت به قصائد الشاعر ومما يطلعنا على موقفه وهو القرشى الأصل ، الزبيرى الهوى ، الذى مدح عبد الله بن الزبير فى حربه وفى سلمه ، والذى أراد لقومه العزة والسلطان ، وصارح بنى أمية العداوة ، وكان بوقاً مدوياً على كل حال .

د — شعر الأمويين :

رأى الناس فى الأمويين رجال سياسة ، وطلاب دنيا وملك ، اعتمدوا على قوة السيف والمال والعقل فى تأييد عرشهم ، فجنح إليهم الشعب طمعاً فى مالهم أو خوفاً من بأسهم . وكان أكثر الشعراء المنتمين إلى حزبهم من ذوى المنفعة ، الذين يمدحون ملوكهم لأجل الطمع أو الخوف ، وليس فى شعرهم كثير جدة من الناحية الفنية ، فهو يدور حول المديح بالصفات العامة كالكرم ، والحلم ، وحسن السياسة ، والمجد القديم ، والحظ المواتى وما إلى ذلك . ومن أخلص الشعراء عاطفة لبنى أمية كعب الأشقرى ، الذى كان من أعظم وصافى الحرب فى العصر الأموى .

* كعب الأشقرى : هو من الشعراء الفرسان الذين اشتركوا فى الفتح وشهدوا حروب الأزارقة . وقد نظم قصيدة مشهورة وأنشدها فى حضرة الحجاج لما تغلب المهلب بن أبى صفرة على الخوارج . وهى قصيدة تقع فى أربعة وثمانين

بيتاً ، وتدور كلها حول الحرب ووصف القتال تتبع فيها الشاعر جيش بنى أمية وجيش الخوارج فى مختلف المواقف ، فى لهجة حماسية شديدة ، وإليك شيئاً منها :

يا حفْصُ إنِّى عدانى عَنْكُمُ السَّفَرُ ... وقَدْ أَرِقْتُ فآذى عَيْنِىَ السَّهرُ
علقْتُ يا كَعْبُ بَعْدَ الشَّيْبِ غانِيَةً ... والشَّيْبُ فيه عن الأَهواءِ مزْدَجَرُ
واشتدَّتِ الحربُ والبلوى وحلّ بنا ... أَمْرٌ تُشَمَّرُ فى أمثالهِ الأُزُرُ
تلبَّسوا لِقراع الحربِ بِزَّتَها ... فأَصبحوا من وراءِ الجِسْرِ قد عَبَرُوا
ساروا بأَلويةٍ للمجدِ قد رُفِعَتْ ... وتَحْتَهنَّ ليوثٌ فى الوغى وُقُر
قَتْلى هنالِكَ لا عَقْلٌ ولا قَوَدٌ ... منَّا ومِنْهُمْ دماءٌ سَفْكُها هَدَرُ
باتَتْ كتائبُنا تَرْدى مُسوَّمَةً ... حولَ المهلَّبِ حتَّى نَوَّر القَمرُ
عبَّوا جنودَهم بالسَّفْحِ إذ نَزَلُوا ... بكازَرونَ فما عزُّوا ولا ظَفِروا
لاقوا كتائبَ لا يخلون ثَغرهُمُ ... فيهم على من يقاسى حربَهمْ صَعَرُ
صفَّانِ بالقاعِ كالطَّوْدَيْنِ بينَهُمَا ... كالبرقِ يَلْمَع حتى يشخص البصَرُ
يمشونَ فى البَيْضِ والأَبدانُ إذ وَرَدُوا ... مَشْىَ الزَّوامل تهدى صفَّهُمْ زُمرُ (١)
وشيخنا حَوْله منَّا ململمةٌ ... حىٌّ من الأَزدِ فيما نابَهمْ صُبُرُ
ندوسُهُمْ بِعَناجيج مجَفَّفَةٍ ... وبَيْنَنَا ثَمَّ من صمِّ القنا كُسُرُ (٢)
فى معرك تحسب القَتْلى بساحَتِهِ ... أَعْجَازَ نَخْلٍ زفتْهُ الريح يَنْقعرُ
فى كلِّ يومٍ تلاقى الأَزد مفظعةً ... يشيب فى ساعةٍ من هولها الشَّعَرُ

---

(١) الزوامل : الإبل المحملة .

(٢) العناجيج : جياد الخيل والإبل .

والأزد قومى خيارُ القومِ قد علموا إذا قرومُهُمُ يومَ الوغَى خَطَروا
حىٌّ بأسيافهمْ يبغونَ مجدَهُمُ إنَّ المكارمَ فى المكروه تبتدرُ
لولا المهلَّب للجيش الذى وردوا أنهـار كرمان بعد الله ما صدروا

ويمضى كعب الأشقرى فى ملحمته هذه ، وإذا أنت أمام حرب طاحنة يشيب لهولها الشعر ، وقد التقى الجيشان فى زرد الحديد ، وفوقهم البنود خفاقة ، وتحتهم الخيول المطهمة . والجيشان طودا قوّة وشجاعة وبأس . ولما اعتصم الخوارج وراء الجسر ، جاز إليهم الأمويون ، فالتحم القتال ولمعت السيوف ، وانقضّ الهول انقضاض الصواعق ، وجرت الدماء سيولاً ، فانسلّ الخوارج من المعركة ، فاتبعهم جيش بنى أمية ، وعاد القتال إلى الالتحام ، واشتدّت الحال على الخوارج ، فهلك منهم عدد كبير ولاذ الباقون بالفرار .

وهكذا كان الأشقرىّ من أعظم وصّافى الحرب فى العهد الأموىّ ، وهكذا كانت قصيدته من أروع القصائد الحربية لأنها جمعت الاستيفاء ، إلى الدّقة ، إلى التدفق والانطلاق ، إلى الواقعية المضخمة تضخيما ملحميّاً لا يخرج عن حدود المعقول ، إلى تفصيل مواقف الجيشين وتتبع حركاتهما فى لهفة وصدق عاطفة ، إلى الاعتراف بمناعة صفوف الأعداء وحسن بلائهم فى الطعان .

ولئن فخر الأشقرى بقومه الأزد فإنه كان من الشعراء النادرين الذين أخلصوا العاطفة لبنى أمية فصدقوا فى وصف حروبهم ، ومدحوهم بما كانوا له أهلاً من الفعال والخصال الحميدة .

ه — شعر المثلث الأموى :

وهنالك شعراء ثلاثة عرفوا بالمثلث الأموى ، وكان مدار فخرهم حول الذات

والقبيلة والحزب . وهم الأخطل والفرزدق وجرير .

وللحرب والفخر فى شعر الأخطل محل واسع ؛ أما الحرب فقد أتى منها على ذكر عدة مواقع كانت لقومه على أعدائهم . ذكر يوم الثرثار — وهو واد عظيم فى الجزيرة السورية يمده الماء فى الشتاء — وقد دارت رحى القتال فيه بين بنى تغلب وقبائل القيسية ، وكان يوماً شديد الوطأة ، يوماً اربدت سماؤه ، وانتشر الموت فى صفوف المتقاتلين انتشاراً عظيما ، وجرت الدماء على الأرض سيولاً ، وأثبت كل بطل فى مستنقع الموت رجله ، وقال لها من تحت أخمصك الحشر .

وذكر الأخطل يوم « إراب » وكان النصر فيه لقوم الأخطل على القيسية وقوم جرير ، فقال :

ولقد سما لكُمُ الهُذَيْل فنالكُمْ ... بإرابَ حيثُ يقسِّم الأنفالا (١)
فى فَيْلقٍ يدعو الأراقمَ لم تكُنْ ... فُرْسانه عُزْلاً ولا أكْفَالاَ (٢)
بالخيلِ ساهمةَ الوجوهِ كأنّما ... خالَطْنَ مِنْ عملِ الوجيفِ سلالاَ
فسقين من عادينَ كأْساً مرَّةً ... وأزَلْنَ حدَّ بنى الحبابِ فزالاَ
فانعَقْ بضأْنِكَ يا جرير فإنّما ... منَّتْكَ نَفْسُك فى الخَلاَءِ ضلالاَ

وأما فخر الأخطل فقد اصطبغ بالصبغة السياسية ، وهو يدخل فى المدح والهجاء مظهراً لبنى أمية ما لتغلب من الأيادى البيض ، ومظهراً ما لصاحبه من كرم الأصل ومن التفوق على خصمه . واصطبغ فخر الأخطل أيضاً بالصبغة الجاهلية التى تعتمد تعداد الأمجاد القبلية فى النفس ، والتى لمسناها فى شعره الحربى قال :

---

(١) الهذيل : هو الهذيل بن هبيرة التغلبى .

(٢) الأكفال ج كفل وهو الرجل يكون فى مؤخر الحرب همته التأخر والفرار .

بَنى أميّةَ قد ناضلْتُ دونَكُمُ ... أبناءَ قومٍ هُمُ آوَوْا وهم نَصَروا (١)

أفحَمْتُ عنكُمْ بنى النَّجارِ قد علِمَتْ ... عُلْيَا معدّ وكانوا طالَما هدروا (٢)

حتّى استكانُوا وهمْ مِنّى على مَضَضٍ ... والقول ينفُذُ ما لا تَنْفُذُ الإبَرُ

أما فخر الفرزدق فقد قيل فيه :

« ديوان الفرزدق فى حقيقته يكاد يكون دفاعاً خالصاً عن قومه ، وتمجيداً غالياً ، فهو أشبه ما يكون بخطبة أو خطب ، قيلت فى مدحهم والفخر بهم فخراً لا تجف مادته فى نفسه ، إذ كان يستمد من معين لا ينضب ، وكأنه يغرف من بحر تمده أبحر : فهو لسان قبيلته ، وسحب الفخر بها ما تزال تنعقد شعراً على هذا اللسان الرطب برائع القول وجزله » .

والفرزدق يجعل قصائد الهجو فى جو وسيع من الفخر والتبجح ؛ وقد يفتتحها بالفخر . فيأتى خصمه أبداً من عل ، ولهذا قيل : « الفرزدق إذا هجا ارتفع » . يرتفع على جرير خصوصاً ، وكان جرير من أحقر بيوت تميم ، والفرزدق من أشرفها ؛ فكلما أقبل الفرزدق على هجائه تعالى عليه ، ووازن بين الشرف والحقارة ، وأخذ بتعداد آبائه وأجداده ، مفصلاً مآثرهم فى الجاهلية والإسلام . وهكذا كان قومه فى نظره أعز العرب بيتاً ، وأرفعهم شرفاً ، وأوسعهم خيراً وكرماً . هم ذوو العقول التى توازى الجبال ، والثبات الذى لا يتزعزع ، والشجاعة التى تفوق كل شجاعة . . . وهكذا كان هو فى نظر نفسه كريماً كالبحر ، شجاعاً كالأسد ، رفيعاً كالبدر ، مؤلماً كالحية ، قد ورث الشعر من امرئ القيس والمهلهل وطرفة والأعشى وغيرهم من كبار الشعراء .

---

(١) يعنى الأنصار .

(٢) بنو النجار : قوم من الأنصار منهم الشاعر حسان بن ثابت . علیا معد : يريد بنى قريش .

وإذا فخر الفرزدق اتسعت آفاقه ، واشتدت لهجته ، وطال نفسه ، وقويت عبارته ، ولكنه يضطرب فى ميدان قلما يتبدل ، ويأتى بمعان قليلة التنوع .

وقد مزج جرير المدح بالفخر ، والهجاء بوصف الحرب وذكر الأيام ، واكثر من وصف الخيل وتصوير الفروسية .

وهكذا فخر جرير بسيفه ولسانه ، وإذا سيفه أمضى السيوف وإذا لسانه شديد الوطأة :

جَرِىءُ الجَنَانِ لاأَهابُ من الرَّدى إذا ماجَعَلْتُ السَّيْفَ قبضَ بَنانِيا
وليس لسيفى فى العظام بَقِيَّةٌ وللسَّيْف أَشوى وقعة من لِسَانِيا

هذا هو سيف جرير ، وهذا لسانه ، وللسيف عنده أنجع من اللسان فى رقاب جماعة أضاعوا الشرف ، وأضاعوا كلّ إحساس أمام كلمة تُقال ؛ ولوم يوجّه ، وهجاء ينشر . وسيفه بتار يمده قلب جرىء ، وساعد شديد ، ونفس لا تهاب الموت .

وهكذا فخر جرير بشاعريته التى تنقض على الشعراء بالصواعق فتُرديهم صفوفاً صفوفاً ! وفخر بإسلامه ومضريته — وفى مُضر النبوّة والخلافة — ، وتعالى بهما على الأخطل التغلبى وقال :

إنَّ ٱلَّذى حرمَ المكارِمَ تَغْلِباً جعَلَ الخِلافَة والنُّبوَّةَ فينا

وإذا هجا الفرزدق اصطدم بأصله ، وأصل الفرزدق من أصله ، وكلاهما من تميم ، وتميم أصل كريم ، وشجرة باسقة الأغصان ، وذروة من ذرى المجد :

إذا غَضِبت عليك بنو تميمٍ حسبتَ الناسَ كلَّهُمُ غضابَا

إلا أن لتميم فروعاً عدّة ، وفرعُ الفرزدق أشرف من فرع جرير ، ولهذا لم يستطع جرير أن يطاول الفرزدق فى الآباء والأجداد ، ولم يستطع أن يجول معه فى هذا الميدان جولات واسعة ، فاكتفى بذكر بعض الأيام التى كانت لبنى يربوع قومه ، كما أعين على الفرزدق بأيام خُذل فيها قومه بنو دارم وأخواله بنو ضبة .

وإذا هجا جرير الأخطل ذكر حروب قومه وهم حلفاء القيسية وذكر مواقعهم مع بنى تغلب وقال :

ونَعْرف حقَّ النَّازلينَ ولم يزَلْ ... فوارسُنَا يَحْمونَ قاصِيَةَ السَّرْبِ
عَلى مُقْرَبَاتٍ هنَّ مَعْقِلُ من جنى ... وسُمٌّ العِدى والمُنْجِيَاتُ من الكَرْبِ
ألا رُبَّ جَبَّارٍ وطِئْنَ جَبِينَه ... صريعاً ونهب قد حوين إلى نَهْبِ
وقد أَوْرَدَتْ قَيْسٌ عليك وخِنْدِفٌ ... فوارس هدَّمْنَ الحياضَ التى تجبى

أما فخر جرير فكان استعلاء وتعييراً ، وكان ممزوجاً بالهجاء ، وكان انقضاضاً صاعقاً مدوياً ، يحفل بالعاطفة الصاخبة القوية ، وتعصف به موسيقى حربية أخاذة .

* * *

تلك كانت مظاهر الفخر فى العهد الأموى ، وقد تطاحنت فيه الأحزاب تطاحناً شديداً ؛ وإن من تتبع الشعر العربى فى هذا العهد يجده شديد الاقتراب من الشعر الجاهلى فى حقل الحماسة والفخر ، شديد النزوع إلى ذكر الأيام وتعداد الأمجاد ؛ وهو إلى ذلك قد امتاز باتساع الآفاق الاجتماعية والسياسية والدينية ، وازداد غلوّاً وإغراقاً فى وصف الحروب وأدواتها ، وازداد تتبعاً لحركات الجيوش ، كما ازداد نزوعاً إلى التعبير بالمخازى ، والإقذاع فى ذلك التعبير .